الشيخ العربي التبسي والقضية الوطنية الجزائرية

د. بشير سعدوني
جامعة الجزائر-2-

قال تعالى: " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً " . سورة الأحزاب الاية 23

لمحة عن حياته:

ولد الشيخ العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات الجدري الملقب بـ "العربي التبسي " في بلدة اسطيح [1] سنة 1895 م [2] وسط عائلة جزائرية محافظة، متوسطة الحال، حيث كان والده السيد فرحات يشتغل في الفلاحة، ويحفظ القرآن لأبناء أهل بلدته . لقنه والده المبادئ الاولى للعلوم[3] قبل وفاته سنة 1903م[4] ثم تتلمذ على يد الطيب الزاوي، انتقل بعد ذلك إلى زاوية " خنقة سيدي ناجي " بجنوب شرق مدينة خنشلة بالاوراس، حيث اكمل حفظ القران الكريم . ولما بلغ عامه الخامس عشر انتقل إلى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز[5]، الواقعة في بلدة نفطة جنوب غرب تونس فقضى فيها اربع سنوات .

و في سنة 1914 م انتسب إلى جامع الزيتونة[6]، وفي رحاب الجامع الأعظم، كما كان يطلق عليه تفتح عقله وذهنه على افاق واسعة من الثقافة الإسلامية، ثم شدّ الرحال إلى جامع الأزهر حيث تابع دراسته العليا في الشريعة وأصول الدين فأحرز على درجة العالمية، بعد سنوات من الجد والمثابرة والتحصيل، وكانت الفترة التي قضاها في الازهر من ابرز الفترات المشرقة في حياته واحدى العوامل المؤثرة في تكوينه نظرًا للنهضة العلمية والادبية التي كانت تعيشها مصر آنذاك بسبب كثرة العلماء والمصلحين بها وانتشار الطباعة والصحافة والنشر.

إلاّ أنّ كلّ ذلك لم ينس الشيخ التبسي أهله ووطنه، بل كان على اتصال دائم بوطنه، متتبعًا لأحداثه، مدافعًا عن قضاياه إلى أن اكمل الحصول على الزاد المعرفي الذي سافر من اجله، فعاد إلى بلده ليبدأ جهاده بالكلمة والقلم إلى ان لقي ربه شهيدًا سنة 1957[7] .

جهاده:

ما ان عاد إلى ارض الوطن، من رحلة طلب العلم، حتى وجد الجزائر تعاني من عدوين وهو ما يوضحه بقوله:

" ان ما ابتليت به هذه الأمة في عهدها الحاضر ان سلّط عليها عدوين يعملان لإبادتها ومحوها، عدو منها، وعدو من غير جنسها، فهي تقف في واجهتين، تدافع عن كيانها، ولا سلاح لها غير ايمانها، ولكن اكبر بلائها ان يكون ابناؤها من أعدائها، أمّا العدو الخارجي، فلا سبيل له عليها ما اتحدت وتضامنت، وكانت جبهة واحدة، والمتآمران على الكيد للجزائر هما الاستعمار والطرقية ".

فشرع يخوض المعارك دفاعًا عن الاسلام والوطن بكل جرأة وشجاعة، ويمكن ان يفسر هذا الحماس الثوري لدى الشيخ العربي التبسي بما يلي:

1. تشبعه بمبادئ الإسلام الذي يدعو إلى الجهاد، ومقارعة الاعداء، وتحرير الأوطان، وعدم الرضوخ والاستسلام، وفي هذا يقول: " ان موقف فرنسا من الاسلام في الجزائر شاذ، والإسلام يدعو إلى بغض الاستعمار وحمل بغضه في الصدور، وفي الحياة، وفي القبور"[8].
2. تتبعه لمنهج اخوانه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذين بذلوا الكثير من التضحيات للمحافظة على الجزائر، أرضًا وشعبًا ودينًا، وفي مقدمتهم قدوتهم وامامهم الشيخ المرحوم عبد الحميد بن باديس الذي يروى عنه أنه عندما اشتدّ وطيس الحرب العالمية الثانية، اجتمع بثلة من انصار حركته ومؤيديه فقال: عاهدوني، فلما اعطي العهد، قال: " إني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها ايطاليا الحرب "[9].
3. كونه كان اشد النّاس عداوة للاستعمار، حيث يروي عنه قوله: " من عاش فليعش بعداوته لفرنسا، ومن مات فليحمل معه هذه العداوة إلى القبور"[10].

4. استعداده لنيل الشهادة دفاعًا عن الاسلام والوطن، وفي هذا يقول عبد الله عثامنية: " ان عبان رمضان طلب من الشيخ العربي التبسي الخروج من الجزائر" فرد عليه الشيخ قائلاً: " اذا خرجنا كلنا من الجزائر فمن يبقى مع الشعب "[11].

و يقول صالح بن القبي:

" إن بن يوسف بن خدة، سلمه جواز سفر، وأمره ان يذهب إلى العربي التبسي الذي كان يسكن بالقصبة من أجل ان يغادر البلاد، نظرًا للخطر الذي يحدق به، فرفض الشيخ العربي التبسي استلام الجواز، فارجعته إلى ابن خدة"[12].

هذا الموقف يؤكده الدكتور احمد الرفاعي شرفي [13] فيقول:

"سمعت من الطاهر حراث، رحمه الله، وغيره ان الكثيرين من اصدقاء الامام (يقصد العربي التبسي) حاولوا اقناعه بالخروج من الجزائر بعد ان اصبح هدفا ضخما وواضحا لغلاة المعمرين، فكان جوابه دائما " اذا كنا سنخرج كلنا خوفا من الموت فمن يبقى مع الشعب[14]"

هذه الشجاعة تجلت في العديد من المواقف من ذلك ما رواه الشيخ بلقاسم الزغداني رحمه الله، رواية عن الشيخ عبد الحميد، رحمه الله، "انه استدعي إلى مكتب مدير الشؤون الأهلية في الولاية العامة وهو في الوقت نفسه المسؤول عن الشؤون الإسلامية للحديث معه عن المطالب الإسلامية لجمعية العلماء بصفته رئيسا لها، واصطحب معه الامام الشيخ العربي التبسي، وما ان شرع مدير الشؤون الأهلية في شرح وجهة النظر الفرنسية فيما ينبغي ان يقوم عليه الحل، حتى بادر الامام الشيح العربي دون تردد بما معناه: "انت رجل مسيحي لا يجوز لك الحديث عن ديننا ولا عن ما ينبغي ان يكون عليه وضعه الاداري" فوجم الرجل واصفر وجهه وأنهى الاجتماع قائلا: " لم يبق بيننا وبينكم مجال للحديث "

وقال الشيخ عبد الحميد ابن باديس تعقيبا عن هذا الموقف للشيخ بلقاسم "ماصدقت اننا خرجنا سالمين من دار الولاية العامة [15]

و كان يستشهد في كتاباته بهذا البيت .

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أيّ جنْبٍ كان في الله مصرعي

وسائل المقاومة:

تنوعت وتعددت وسائل المقاومة لدى الشهيد العربي التبسي منها:

أ. تثقيف الشعب، وتوعيته، وغرس قيم المقاومة في نفوس الناشئة .

ب. مقالاته الصحفية، ومحاضراته الجهادية الوطنية .

ت. رفض الاستجابة لاغراءات المستعمر، وعدم الخوف من تهديداته .

أ- تثقيف الشعب وتوعيته:

كان قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[16] يدركون أن الشعب الجاهل لا يمكنه الحصول على استقلاله من اعدائه، كما انه عاجز عمليًا عن المحافظة عليه بعد تحقيقه، لأنه لا يستطيع ان يقدر الاستقلال حق قدره لهذا اتخذوا من المدرسة اداة رئيسية لمحاربة الاستعمار" وقد كان ابن باديس ورفقاؤه يرون ان التعليم أهم سلاح للوقوف في وجه المستعمر. لهذا نجد الشيخ العربي التبسي كرّس كلّ وقته منذ عاد إلى ارض الوطن سنة 1927 في تربية وتكوين الناشئة، فكان ينظم دروسًا للعامة، ودروسًا وحلقات للخاصة، وحلقات مغلقة للمدرسين والمعلمين والموريدين [17]، فأنشأ مدرسة التهذيب بتبسة، واعتنى بها، ثم اتجه إلى مدينة " سيق " بالغرب الجزائري، حيث لقي حفاوة كبيرة من اهلها، ومكث بينهم لمدة سنتين فأسس أعيان تبسة لجنة خاصة ارسلوها اليه لاقناعه بالرجوع، إلاّ أنه رفض طلبهم الا بموافقة اهل " سيق " وبالحاح من اللجنة وافق اهل سيق على رجوعه إلى مدينة تبسة [18].

ب- مقالاته الصحفية، ومحاضراته الجهادية:

كتب الكثير من المقالات في الصحف، خاصة صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العديد منها حماسية منها:

— هذه جزائركم تحتضر أيها الجزائريون فانقذوها .

- ألا أيها النوام هبُّوا .
- الجزائر تصنع بك أيها الجزائري أينما كنت .
- دعوة إلى تحرير الوطن ونبذ الاستعمار[19] .

و كمثال على ذلك نورد ما يلي:

سنة 1954 رحل إلى البقاع المقدسة رفقة صديقه الشهيد احمد بوشمال العضو الاداري في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبعد العودة عُقِدَ اجتماع اعيد فيه انتخاب الهيئة الادارية لجمعية العلماء يوم 23 جمادى الاول 1375 هـ الموافق لـ 7 جانفي 1956 م والقي فيه الشيخ التبسي خطابًا هامًا، وصدر بلاغ رسمي جاء فيه ما يلي:

" ... ويعلن بكل صراحة أنّ النظام الاستعماري المفروض بقوة السلاح على القطر الجزائري منذ 1830 هو المسؤول الوحيد عن كل المآسي والمصائب والويلات التي وقعت في القطر الجزائري، وذلك بما أحدثه فيه من ميز عنصري مخضل، وما سلكه فيه من سياسة التفقير والتجهيل والحرمان من كل نعم الحياة بالنسبة للعنصر الإسلامي، وما حارب به الدين الإسلامي في أقدس مقدساته، وما أجهز على التعليم العربي القرآني في كل جهة من جهاته ... وما تعمده من محق جنسية الأمة الجزائرية، ومحاولة ابتلاعها، ومحو كلّ مظهر من مظاهر سيادتها .

" ويترحم على الشهداء الأبرار الذين ذهبوا ضحية القمع الأعمى الفظيع، ويدعو الأمة للقيام بواجبها نحو أبنائهم وعائلاتهم، وكفالتهم كفالة يوجبها الاسلام، وتفرضها المروءة والشرف " [20].

ت- رفض الاستجابة لاغراءات المستعمر، وعدم الخوف من تهديداته .

حاول المستعمر الفرنسي جلب الشيخ التبسي لصفه، أو على الأقل جعله يتخلّى عن مهاجمته، وتحريض الجزائريين ضده، فاستخدم معه أسلوبي التهديد والإغراء .

أسلوب التهديد:

تمثل أسلوب التهديد في إعتقال الشيخ العربي التبسي أكثر من مرة ففي سنة 1943 إتهمته السلطات الفرنسية بالاتصال بالألمان بتونس وتلقيه السلاح منهم من اجل إثارة الجزائريين ضد فرنسا، فقضى ستة أشهر في السجن بين تازولت وقسنطينة [21].

و خلال مجازر 8 ماي 1945 عادت السلطات الاستعمارية إلى اعتقاله من جديد وهو في مدينة قسنطينة [22]، كما القي القبض على الشيخ البشير الابراهيمي رئيس الجمعية وعدد من اعضائها، لإدراكها أنّ هؤلاء شموع الجزائر وكلمتهم مسموعة، وبإمكانهم إثارة الشعب عليها .

فظلّ الشيخ التبسي في السجن لعدة اشهر بالجنوب الغربي للجزائر في الصحراء حتى يكون بعيدًا عن الاهل والاتباع والانصار، ولم يطلق سراحه إلاّ سنة 1946 [23]، لم تكتف السلطات الفرنسية بسجنه، بل أنها فرضت عليه. الإقامة الجبرية بعد انتهاء مدة عقوبة في مدينة المدية[24]، وعندما اندلعت الثورة اعلن صراحة عن دعمه المطلق لها، وكان يحثّ الناس على الانخراط فيها اذ يقول: " انه لا يحق لأنه مسلم، دون عذر، أن يتخلف عن الجهاد"[25] بل أنه قال " لو كنت في صحتي وشبابي ما زدت يوما واحدا في المدينة أسرع إلى الجبال فأحمل السلاح، فأقاتل مع المجاهدين [26].

وفي افتتاحية في عدد البصائر رقم 330 قال " القضية ايها السادة، قضية انقلاب كامل لا قضية اصلاحات جزئية، قضية شعب يريد دولة وحكومة ديمقراطية صحيحة ودستورا يحقق سيادة الامة، كل الامة، لا يريد لقمة خبز تلقى لاسكات الجياع، وحفنة من الرماد تذر في العيون" [27]

اسلوب الاغراء:

ادرك الفرنسيون مكانة الشيخ العربي التبسي لدى غالبية الشعب الجزائري خاصة انه اصبح الرئيس الفعلي لجمعلة العلماء المسلمين الجزائريين بعد رحيل الشيخ البشير الابراهيمي واستقراره في المشرق العربي[28]، فحاول بعض رجال الحكومة الكبار استدراجه لمقابلتهم والتفاهم معه علهم يستطيعون الخصول منه على كلمة او تنازل ما أواستعداد

للتفاوض معهم حول حلّ معين للقضية الجزائرية، فيتخذون ذلك ذريعة للطعن في شرعية جبهة التحرير الوطني وتمثيلها للشعب الجزائري كله. لكنه كان مدركا لدسائس العدو وأساليبه، فكان يرفض رفضا قاطعا أي اتصال أو حوار مع العدو الفرنسي، من ذلك أنهم ارسلوا اليه في شهر نوفمبر1956 مفاوضهم . "م . كومان" كاتب الحزب الاشتراكي المتولي الحكم فلم يفز منه بطائل، وابلغه ان المفاوض الوحيد هو جبهة وجيش التحرير الوطني، او من يعينونه لكم[29]، ثم ارسلوا اليه في شهر جانفي 1957 مبعوث جريدة "Le Monde" لومندو ليحاول أخذ حديث معه، ينشرونه من بعد ثم يعلقون عليه كما يريدون، فاعتذر ورفض مقابلته[30].

وحين اصطدموا بصلابة موقفه، وتأكدوا من عدم استعداده للتنازل عن مبادئه، وموقفه المساند لجبهة وجيش التحرير الوطني قرروا الانتقام منه بإهانته ثم تصفيته جسديا.

استشهاده:

في مساء يوم الخميس، وليلة الجمعة 4أفريل 1957 اقتحم الجنود الفرنسيون بيته وانتزعوه من فراش مرضه انتزاعا، وعومل بغلظة وفظاعة، وأهين امام أعين ابنه الكبير، فقد بعثروا كتبه، وداسوا بأقدامهم مصاحفه، وحجزوا محفظتة بما احتوته من مستندات وأموال قد تكون له أو للجمعية، ثم اخرجوه حافي القدمين، حاسر الرأس، لا يكاد يستر جسده شيء واقتادوه إلى مصير مجهول .

وقد حاولت السلطات الفرنسية التنصل من هذه الجريمة الشنعاء، فزعمت أن الدين اختطفوه هم " الارهابيون " أي رجال جيش التحرير كما تسميهم ألاّ ان جمعية العلماء كذبت هذا التضليل، واعلنت للرأي العام العالمي أن فرنسا هي التي قامت بهذا الفعل الشنيع[31].

و ظل مصيره مجهولاً، وقبره غير معروف إلى ان اتضح مؤخرًا من بعض الشهادات التي قد تكون صحيحة انه مدفون في " عين ذهب "، ولاية تيارت[32].

تكريمه:

" بعد الاستقلال، قامت الدولة الجزائرية بتكريم هذا العالم الشهيد، فحملت المساجد والمدارس والثانويات والجامعات وغيرها من المعالم الوطنية اسم "العربي التبسي" كما كرمه الـرئيس عبـد العزيـز بوتفليقـة بتسـمية مطـار مدينـة تبسـة باسـمه، وقيـام مؤسسـته الثقافية"[33].

الهوامش:

1 عبد العزيز نصيب: الرجل الذي نصر الحق بالحجة الناهضة وقارع الاستعمار في جميع مظاهره . الشروق اليومي 4/5 / 2004 ص 15 ع 1042.

2 نفسه .

3 بوجرادة محمد: في الذكرى الـ 52 لاستشهاد الشيخ العربي التبسي، الشروق العربي الاسبوعي من 6 إلى 12 أفريل 2009، عدد 863، ص5.

4 نفسه .

5 نفسه .

6 نفسه .

7 نفسه .

8 احمد الرفاعي الشرفي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ج 2، ط1، دار الشهاب، باتنة، 1984، ص 51 .

9 عبد الكريم بو الصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الاخرى، 1931-1945، دراسات تاريخية وايديولوجية مقارنة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996 ص 167 .

10 نفس المرجع، ص 92 .

11 ندوة حول الشيخ العربي التبسي في ذكرى استشهاد 47 " ابقى مع الشعب حيًا أو ميتًا " المساء 10 / 4 / 2004 ص 15 .

12 نفس المرجع

13الدكتوراحمد الرفاعي شرفي هو مؤلف سلسلة كتب مقالات وراء علماء جمعية العلماء المسلمين ومن هذه الكتب كتاب الشيخ العربي التبسي "الصادر عن دار الهدى " الجزائر سنة 2011

14 نفس المرجع ص 11

15 نقلا عن الرفاعي ص 11

16 تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم 5 ماي 1931 بنادي الترفي بعاصمة الجزائر، لمزيد من التفاصيل، أنظر عبد الكريم بو الصفصاف، مرجع سابق ص ص 101- 109 .

17 أحمد عيساوي، التبسي رفقة الدعوة والهدف، مرجع سابق .

18 ندوة حول الشيخ العربي التبسي في ذكرى استشهاد 47، مرجع سابق .

19 أحمد عيساوي، منارات من شهاب البصائر للشيخ العربي بن قاسم التبسي (د . ط، د . ت) ص 390

20 البصائر عدد 349، 29 جمادى الأولى 1375 / 13 جانفي 1956 .

21 عبد الكريم بو الصفصاف، مرجع سابق ص 89 .

22 نفس المرجع ص 89 .

23 نفس المرجع ص 89 .

24 علي مرحوم، من وثائق الثورة حول استشهاد العربي التبسي، مجلة الاصالة، عدد خاص 73 / 74- شوال- ذو القعدة 1399 هـ سبتمبر- أكتوبر 1979 م ص 95 .

25 حسين عريبي، الشهيد العربي التبسي ذكرى وعبرة، أشغال الملتقى الوطني الثالث للفكر الاصلاحي في الجزائر 2000، ص 69 .

26 نفس المرجع ص 69 .

27 نفس المرجع ص 70 .

28 علي حشلاف، المواقف السياسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال صحفها 1931- 1939 رسالة لنيل شهادة الماجيستر معهد علوم الاعلام والاتصال، جامعة الجزائر 1994، ص 91 .

29 الشيخ البشير الابراهيمي، مجاهد من كبار العلماء، ولد سنة 1889 بسطيف، انتخب رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد عبد الحميد بن باديس، وهو خطيب موفه، توفي سنة 1965 بالجزائر .

أحمد الرفاعي شرفي، مقالات واراء علماء جمعية العلماء المسلمين، الشيخ العربي التبسي، دار الهدى، الجزائر 2011، ص 21 .

30 على مرحوم، مرجع سابق ص 102 .

31 نفس المرجع .

32 نفسه ص ص 104- 105 .

33 العربي التبسي يكون مدفونا بـ " عين الذهب " عائلة الشهيد تتحفظ على بعض السلوكات . الخبر الاثنين 10 سبتمبر 2001 م الموافق لـ 22 جمادى الثانية 1432 هـ .